العلاقات الأمريكية التركية إلى أين؟

25-9-2004

وركزت أجهزة الإعلام التركية خلال الأيام الأخيرة على إظهار مدى غضب واستياء الشعب التركي مما يمارس من انتهاكات ضد إخوانهم التركمان في العراق، وعرض التلفاز التركي لمشاهد مطولة عن الهجوم الأمريكي على "تل عفار"، والذي اعتبره الكثير من الأتراك جزءاً من حملة لتطهير المنطقة من التركمان وتدعيم السيطرة الكردية عليها، واتهموا القوات الأمريكية بمساندة الأكراد في مواجهاتهم مع التركمان، وهو ما أنكره المسئولون الأكراد بشدة، ونفوا وجود أي محاولة لتغيير التوازن العرقي بالمنطقة.

والحقيقة أن هنا صراعاً يدور في

بقلم عبدالله صالح

للمرة الأولى منذ التراشق اللاذع بالكلمات بين الولايات المتحدة وتركيا في يوليو من العام الماضي، في أعقاب اعتقال القوات الأمريكية 11 كوماندوز تركي في المناطق الكردية بالعراق، تجددت الخلافات بين البلدين بصورة علنية خلال الأسبوع الماضي، بسبب الهجمات الأمريكية على المناطق التي يسكنها التركمان في شمالي العراق. وقد حذر وزير الخارجية عبد الله جول، في حديث للتلفاز التركي، من أنه إذا لم تتوقّف الولايات المتّحدة عن هجماتها على مدينة "تل عفار" التركمانية، فإن أنقرة قد تسحب دعمها للولايات المتّحدة في العراق.

وتعد تركيا حليفاً رئيسياً للولايات المتحدة في المنطقة، وبها عدد من القواعد العسكرية الأمريكية، كما تقوم الشركات التركية بالتعاون مع نظيرتها الأمريكية في العديد من المشروعات وأعمال المقاولات في العراق، وتجلب المئات من المركبات التركية السلع للقوات المسلحة الأمريكية يوميا، على الرغم من اختطاف العديد من الأتراك من جانب بعض الجماعات المسلحة في العراق ومقتل عدد منهم.

ويشكل التركمان جزءاً كبيراً من سكان الدولة التركية، وبعضهم يعيش في الدول المجاورة، ويتركز جانب كبير منهم في شمال العراق، قرب الحدود مع تركيا، وقد ظلت أنقرة لفترة طويلة تعتبر نفسها مسئولة عن حماية حقوق الأقليات التركمانية في الدول المجاورة، ومنع أي اعتداء عليها. وكانت الهجمات الأمريكيّة على مدينة "تل عفار" قد خلفت أكثر من 120 قتيلا ونحو 200 جريحا، وبررت واشنطن هذه الهجمات بأنها كانت تستهدف بعض العناصر "الإرهابية" التي تسللت إلى العراق قادمة من سوريا، وأكد المسئولون الأمريكيون أنهم تجنبوا قصف أية أهداف مدنية، أو ضرب أي من منشآت البنية التحتية.

وقد علق السفير الأمريكي في تركيا "إيريك إدلمان" قائلاً: "إنها مجرد عملية عسكرية محدودة لمطاردة فلول الإرهابيين، ونحن نحاول تقليل الخسائر المدنية إلى الحد الأدنى، حيث إن كل عمل عسكري لابد أن يكون له ضحايا مدنيون، وقد تم تنفيذ هذه العملية بعناية فائقة، ومنذ تلقينا مذكرة الاحتجاج من المسئولين الأتراك على قصف "تل عفار"، لم نقم بأي هجمات تالية بالمدينة".

التدهور في العلاقات التركية الأمريكية هو أحد نتائج التطورات السريعة التي شهدتها المنطقة في أعقاب أحداث 11 سبتمبر على الولايات المتحدة والغزو الأمريكي للعراق. فعلى الرغم من التلكؤ الأوربي في قبول تركيا عضواً بالاتحاد الأوربي، فإن أنقرة تتحرك بعيداً عن الولايات المتحدة، وفي اتجاه أوروبا، وهو ما ظهر مؤخراً من صفقات الأسلحة وطائرات الأيرباص المدنية التي عقدتها مع بعض الدول الأوربية.

وفي نفس الوقت فإن تركيا بدأت في توطيد علاقتها بشدة مع كل من سوريا، وإيران، بالإضافة إلى تحسين روابطها الاقتصادية مع روسيا، والتعاون معها أيضًا في القضايا الأمنية، ومكافحة ما يسمى بالإرهاب. كما بدأت تركيا في التحرك بعيداً عن إسرائيل "حليف أمريكا الاستراتيجي في الشرق الأوسط"، حيث اتهمتها بممارسة إرهاب الدولة ضد الفلسطينيين، وقد عاد بعض أعضاء الحكومة التركية مؤخراً من زيارة لهم في تل أبيب، وأعربوا عن عدم اقتناعهم بالتفسيرات الإسرائيلية بشأن التدخل الإسرائيلي غير المبرر في الشئون العراقية، وخاصة في المناطق الكردية.

وركزت أجهزة الإعلام التركية خلال الأيام الأخيرة على إظهار مدى غضب واستياء الشعب التركي مما يمارس من انتهاكات ضد إخوانهم التركمان في العراق، وعرض التلفاز التركي لمشاهد مطولة عن الهجوم الأمريكي على "تل عفار"، والذي اعتبره الكثير من الأتراك جزءاً من حملة لتطهير المنطقة من التركمان وتدعيم السيطرة الكردية عليها، واتهموا القوات الأمريكية بمساندة الأكراد في مواجهاتهم مع التركمان، وهو ما أنكره المسئولون الأكراد بشدة، ونفوا وجود أي محاولة لتغيير التوازن العرقي بالمنطقة.

والحقيقة أن هنا صراعاً يدور في شمال العراق، بين كل من الأكراد، والتركمان، والعرب وبصفة خاصة في كركوك، التي يوجد بها نحو 6% من احتياطيات النفط العالمي، ويبلغ عدد سكانها حالياً نحو 550 ألف نسمة، وقد عمل صدام حسين على تغيير التوازن الديموجرافي بالمنطقة من خلال توطين أعداد كبيرة من العرب، ومعظمهم من الشيعة، ولذلك فإن كركوك تعد معقلاً لحركة مقتدى

الصدر، كذلك فإن معظم التركمان من الشيعة، على خلاف الأكراد الذين يتبعون المذهب السني، والذين سيطروا على كركوك خلال الستينات والسبعينات قبل قيام صدام بإتباع سياسة تعريب الإقليم.

وطبقاً لبعض التقديرات، فإن ما يزيد عن 70ألف كردي قد دخلوا كركوك خلال الأشهر الـ 17 الماضية، وحوالي 50 ألف عربي قد فروا إلى الجنوب ثانية وبذلك أصبح بالمدينة نحو 320 ألف كرديّ و 200ألف عربي. ويسعى الأكراد إلى زيادة نسبتهم في المدينة بصورة كبيرة، بالنظر إلى اعتماد الانتخابات القادمة المقرر إجراؤها في يناير المقبل على قاعدة التمثيل النسبي. ويعتقد كل من العرب والتركمان أن الأكراد يخططون من خلال هذه التغيرات الديموجرافية، إلى إضافة مدينة الموصل إلى الدولة الكردية التي يحلمون بإنشائها.

وتعاني تركيا من مشاكل خطيرة مع الأكراد، الذين يشكلون 20% من سكانها، وتكفي الإشارة إلى أن تكلفة قمع الثورة الكردية بلغت نحو 8 بلايين دولار سنوياً، وأن الصراع بين الأكراد والحكومة التركية أسفر عنه مقتل ما يزيد عن 35 ألف شخص، من بينهم خمسة آلاف جندي تركي، فضلاً عن آلاف القرى التي دمرت، وملايين الأكراد الذين شردوا.صحيح أن الثورة الكردية هدأت بعد اعتقال ومحاكمة زعيم حزب العمال الكردستاني "عبدا لله أوجلان" عام 1999 ، ثم استبدال عقوبة الإعدام بالسجن المؤبد عام 2002 ، لكن ثورة الأكراد لم تنته، حيث قام الحزب، الذي أصبح يطلق على نفسه "كونجا جل" بنقل نحو أربعة آلاف من كوادره إلى شمال العراق، وبدلاً من أن تقوم الولايات المتحدة بنزع أسلحة كوادر حزب العمال - إرضاء لتركيا- فقد عملت واشنطن على مكافأتهم لعدم قيامهم بمقاومة الاحتلال الأمريكي للعراق.

ومنذ عدة أيام أعلن رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوجان أن صبر تركيا كاد ينفد بسبب تردد الولايات المتحدة في اتخاذ إجراء عسكري رادع ضد الأكراد، الذين يختبئون في شمال العراق. ففي عام 1999، أعلن حزب العمال الكردستاني وقف إطلاق النار بعد أسر زعيمه، عبد الله أوجلان، لكن وقف إطلاق النار لم يستمر طويلا، فسرعان ما عادت الاشتباكات والمعارك بين الأكراد وقوات الأمن داخل تركيا.

وقد تدخلت تركيا أكثر من مرة في الأراضي العراقية، لمهاجمة قواعد حزب العمال الكردستاني وكوادره، وأعلنت أنها تعتبر إنشاء أي كيان مستقل للأكراد بمثابة إعلان للحرب عليها، لأن هذا سيشجع أكراد تركيا أيضاً على تحقيق طموحهم، فضلا عن أنه يعيد إلى الأذهان ذكريات المؤامرات الغربية ضد تركيا، عندما أجبر السلطان العثماني بعد الحرب العالمي الأولى على التوقيع على اتفاقية عام 1920، التي التزم بمقتضاها بمنح الاستقلال للأرمن ومنح الحكم الذاتي لأكراد تركيا، لكن مصطفي كمال أتاتورك قام بقمع الثورات الكردية بقسوة، مؤكدا على خيار "تركيا الموحدة".

وقد خلقت الحرب العراقية الإيرانية أجواء مناسبة لحزب العمال الكردستاني لينشئ لنفسه قواعد في شمال العراق، واستطاع الأكراد خلال الحرب التي استمرت ثماني سنوات، أن يوطدوا أقدامهم في المنطقة، ومع اندلاع أزمة الخليج عام 90/1991 وتشجيع الرئيس بوش لهم على الثورة ضد نظام صدام حسين، بدأت فكرة إقامة دولة كردية شمال العراق تلقى تأييداً أمريكيا واسعا، وقد بدأت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بفرض منطقة حظر جوي شمال العراق، وهو ما استغله الأكراد في تدعيم وجودهم في المنطقة، والتمهيد لإقامة دولة كردية مستقلة، أما تركيا فقد خسرت الكثير من جراء هذه الحرب، نتيجة إغلاق خطوط الأنابيب العراقية، وتوقف التجارة مع العراق، فضلا عن تصاعد الثورة الكردية ضدها.

ومع قيام الولايات المتحدة بغزو العراق العام الماضي، وتقديم تركيا كافة المساعدات المطلوبة لحليفها الأمريكي، توقعت أنقرة أن ترد واشنطن لها الجميل، أو على الأقل تقف موقف الحياد في معركة تركيا مع الأكراد، غير أن الولايات المتحدة تنكرت لحليفها التركي، عندما وجدت أن مصالحها في العراق تقتضي استرضاء الأكراد ومكافأتهم على الترحيب بالقوات الأمريكية، وتجاهلت مطالب أنقرة بضرورة نزع سلاحهم، بل واستنكرت التدخل التركي في الأراضي العراقية بدعوى مطاردة قواعد حزب العمال الكردستاني ، ثم جاء الهجوم الأمريكي على مدينة "تل عفار" التركمانية ليلقي بظلال قاتمة على واقع ومستقبل العلاقات بين البلدين.